

مدينة تيهرت في بعض المصادر التاريخية المبكرة

مجلد الثاني - كتاب - رئيس التحرير

مجلد الثاني

المجلد

مدينة تيهرت في بعض المصادر التاريخية المبكرة

مدينة تيهرت في بعض المصادر التاريخية المبكرة

أ. محمد الطيب عقاب : رئيس الفرقة*
معهد الآثار

المقدمة :

لا نريد أن ندخل في هذا العرض المتواضع الخاص بمعرفة مدينة تيهرت من خلال ما أوردته بعض المصادر التاريخية الإسلامية الأولى ، لأن التعرض لبداية الرستيين ، ولو في بلادنا الجزائر ، لا تستوعبه هذه الصفحات المعدودة ، وحتى ما أوردته تلك المصادر الأولى قد يربو عن بضع صفحات فقط . ولكن يمكن الإشارة الى أن ظهور انحراف المسلمين عن الخط القويم الذي جاء به الإسلام كان مدعاة لظهور عدة حركات سياسية ليس فقط الرستيون وحدهم ، بل ظهرت أحزاب أو فرق بالمصطلح الإسلامي .

ومن أولويات الانحراف عن خط الإسلام القويم اسناد الوظائف وغيرها الى غير الأكفاء أو ما نعتبر نحن اليوم بالمحسوبة . فكان أن ظهرت دعوة تنادي بالرجوع الى قواعد الإسلام الأساسية من العدل والشورى ، ومحاربة سياسة المحاباة ، وتقريب المواليين لولاة الأمر .

وأصحاب تلك الدعوة الأولى هم الإباضيون ، المنسوبة الى قائدها الأول عبد الله بن اباض المرث التيمي ، وإن كان المؤسس الحقيقي لهذه الدعوة هو الإمام أبو الشعثاء الأزدي العماني⁽¹⁾ ، وهو من فقهاء الإسلام الأولين والبارعين فيهم . ومن التوجيهات التي كان أبو الشعثاء يوجهها للأمويين التخلي عن فكرة الملك والرجوع الى فكرة الشورى لاختيار حاكم للمسلمين ، وعدم حصر نظام السياسة والحكم في عائلة واحدة ، وأيضاً عدم جعله وراثياً .

ورغبة في التعمق في المذهب الاباضي ، رغب بعض أعيان المغرب الأوسط في السفر الى الشرق الإسلامي ، مع سلمة بن سعد ، حيث دامت إقامتهم بالبصرة خمسة أعوام . وكان منهم عبد

(☆) الأعضاء : الأستاذ عز الدين بويحيوي والأستاذة بواشي نشار خديجة .

الرحمن بن رستم . بعدها تم قيام الدولة في طرابلس الغرب ، تحت امامة أبي الخطاب ، فاختار هذا الأخير عبد الرحمن بن رستم قاضياً على الدولة ، وأعقب هذا التأسيس للدولة صعوبات حمة من طرف العباسيين ، ولكن الاباضية صمدت الى أن تحققت فكرة الدولة في تاهرت (تيهت) في آخر المطاف .

وكان مكان استقرار ابن رستم بجبل سوفجيج ، المشهور بمنعته وحصانته ، وكان به الاباضيون الذين رحبوا به ، وقصده كهراء وعلماء المنطقة . وبهذا الترحاب بابن رستم جهز ولاية العباسيين جيشاً كبيراً ، حاصر سكان الجبل في سفحه ، ولم يتراجع الجيش عنه الا بعد أن فشا فيه مرض الطاعون وغيره⁽²⁾ .

اثر ذلك اجتمع علماء الاباضية وبايعوا ابن رستم ، فاختار موقعاً منيعاً ومرتفعاً نسبياً المتمثل في تيهت القديمة . غير أن هذا المكان سرعان ما تخلى عنه لأمر ما . يرجعه بعض المؤرخين الى هدم ما كان يبنى في النهار ليلاً⁽³⁾ ، فابتنى المدينة في تيهت السفلى أو الحديثة التي بينها وبين القديمة خمسة أميال⁽⁴⁾ .

موقع تيهت :

ان موقع تيهت (تاهرت) في حقيقة الأمر يختلف عن مواقع المدن الجزائرية وحتى في المغرب الإسلامي ككل ، فهذه الأخيرة جاءت في أعالي الأمكنة ، مثل قلعة بني حماد بالمسيلة وأشير وبجاية وندرومة وفاس وغيرها ، بينما كانت تيهت في مكان مستو نسبياً ، مفتوحة على جميع الجهات ، وان كانت في موقع مرتفع قليل يسمح لأصحابها بالرؤية الأفقية ، بما يسمح به النظر ، وهذا دليل على أن أصحابها كانوا ما يزالون متعلقين بالبيئة الصحراوية لشبه الجزيرة العربية ، اذ حرصوا أن يكون الموقع يتوفر على مقومات الحياة من الزرع والمياه والأشجار ، حتى لا يحتاجون الى ظهير لهم يمولهم من نواقص الموارد المعيشية . ومع ذلك فقد أشاد كل الجغرافيين والمؤرخين باختيار ابن رستم لموقع المدينة الثاني وهو تيهت الحديثة أو السفلى ، فالمقدسي يرى أنها بلح المغرب قد أحرق بها الأنهار ، والتفت بها الأشجار ...⁽⁵⁾ . أما البكري فجعلها في سفح جبل يقال له جزول ... وهي نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينه⁽⁶⁾ . وقد جعلها الادريسي على قمة جبل قليل العلو⁽⁷⁾ .

معنى تيهت (تاهرت) :

لا يعرف بالضبط معنى اسم تيهت (تاهرت) . غير أن ما أورده البكري قد يعني اسم انثى

الأسد (اللبوؤة) ، حينما أشار الى ظهور أسد في الشعراء⁽⁸⁾ وهو يزأر زئيراً شديداً⁽⁹⁾، لذلك يتوافق هذا المعنى مع اللغة الأمازيغية (اللبوؤة) . كما قدم البكري نفسه تفسيراً آخر لمعنى تيهرت حينما أشار الى أنها كانت تعرف بتادفت ، ومعناه الدف ، تشبيهاً بالشكل المحدد لبناء المدينة ، وكأننا أمام رواية جديدة تشبه قصة قرت حدثت (قرطاجة) في تونس من قبل عليسة الفينيقية ، ولكن الذي يهمننا الآن لماذا تاهرت (تيهت) الحديثة وأخرى القديمة ؟ قد لا نجد الآن الجواب الشافي ، ولكن يمكن أن نأخذ طرف الخيط من عند البكري ، لنعرف - في المستقبل ان شاء الله - بعض جوانب ذلك التعدد . وهو ، أي البكري ، قد أورد أن سبب الانتقال من القديمة الى الحديثة كان لنحس يحل كل ليلة بكل ما كانوا يبنونه في النهار ، حيث يصبحون فيجدون مابني بالأمس قد تهدم ، مما اضطرهم للتنقل الى تيهرت السفلى أو الحديثة ، والتي تبعد عن القديمة وبخمس أميال⁽¹⁰⁾ ، وهذه الخمسة أميال لا تساوي 25 كلم التي بين المدينتين اليوم ؟

الثروة الإقتصادية :

أشادت بعض المصادر القديمة - دون استثناء - أن موارد تيهرت عديدة ومتنوعة ، فمن المصادر الطبيعية الى الثروة الحيوانية ، رغم ما أشار بعضها الى أن الرستيين قد اختاروا موقعا لا شجر فيه . فهذا البكري - مثلاً - أكد ذلك بقوله : «... ونزل محمد بن عبد الرحمن موضعاً مربعاً لا شعراء فيه ، فقال البربر نزل تافدمت ...»⁽¹¹⁾ . ومعناه أرض خالية من الغطاء النباتي كغطاء سطح الدف تماماً ، ولكن غيره من المؤرخين والجغرافيين عددوا المصادر الإقتصادية ، وهي كثيرة ، فمن الثمار التي لم يكن أحسن منها في غيرها من البلدان ، فابن خرداذبة يؤكد بأنها مدينة كبيرة ، خصبة ، واسعة البرية والزروع والمياه . وكذلك أشار المقدسي فقال : «... هو بلد كبير كثير الخير رحب ، رفق ، طيب رشيق الأسواق ...»⁽¹²⁾ ، بالرغم من أنه لا يوافق الذين يفضلون تاهرت على دمشق أو قرطبة ، فعقب على ذلك بقوله : «... غير أنه متى يقاس المغرب بالشام - ويقصد هنا طبعاً تاهرت - وأين دمشق في الإسلام»⁽¹³⁾ .

أما البكري فقد أثنى على فواكه تاهرت ثناءً جيلاً ، فاعتبر سفرجلها لا نظير له في العالمين ، حسناً وطعماً ومشماً ، وهو - كما ذكر - يسمى بالفارس⁽¹⁴⁾ ، كما أشار الى أن أسواقها عامرة ، حتى أنه ميز الموازين التي يزنون بها عن الموازين المعروفة في البلاد الإسلامية وكذلك الحال بالنسبة للمكايل ، فهو يعتقد أنها أكثرها حجماً ودقة ، وهذا ربما يدل على وفرة الانتاج عندهم بلا شك .

أما القلقشندي ، فقد أخذ عن المصادر القديمة ما أشارت إليه من الثروة الاقتصادية التي كانت عليها تيهرت ، وخاصة في تيهرت الحديثة ، فهو قد ذكر أن بها أسواقاً عامرة ، وبأرضها مزارع وضياع حمة ... وبها البساتين الكثيرة الموفقة والفواكه الحسنة⁽¹⁵⁾ .

وباختيار الرستمين للمكان المتوفر فيه مقومات المجتمع من المصادر الطبيعية تغنيا عن القول بأن الدولة الرستمية كانت مزدهرة ، الى درجة أنها استطاعت أن تقيم علاقات حضارية مع مختلف الأقطار المجاورة لها بما فيها بلاد الأندلس⁽¹⁶⁾ ، وان كانت في أضيق الحدود ، والتي يبدو أنها كانت علاقة ود وتودد الى الرستمين ، وهذا ما نفهمه من كلام ابن القوطية الذي يؤكد لنا في تاريخه أن هناك جالية أندلسية بتهارت⁽¹⁷⁾ .

وسمحت الثروة الاقتصادية بتاهرت على اقامة علاقة تجارية مع بلاد الصحراء القريبة منها ، وخاصة عن طريق المحطات التجارية المنصوبة لذلك لتوفير الأمن للقوافل التي كانت منها - بدون شك - تلمسان وورجلان (ورقلة)⁽¹⁸⁾ وغيرها ، مما كان للرستمين من تنمية روح التجارة في نفوسهم ، فأصبحت الصفة التي يمتازون بها أو الغالبة عليهم منذ وجودهم بالجزائر بين سكانها ، وخير مثال على ذلك ما قام به أحد أمرائهم من حسن اختيار مثل التجارة عنهم ، والذي كسب شهرة كبيرة للرستمين خارج بلاد المغرب الإسلامي قاطبة ، وكان بذلك سفيراً بارعاً لهم وأي سفير⁽¹⁹⁾ ، وهو ما سمح بثقف قوافل التجارة بكل راحة . كما أنهم امتازوا بالافتح الاقتصادي فسمحوا للأجانب عن مجتمعهم بأقامة أسواق حرة لهم في وسطهم⁽²⁰⁾ .

الإطار الثقافي :

وحتى نلتزم بموضوعنا نحاول أن ندرج جانباً يسيراً من الجو الثقافي الذي كان سائداً في المجتمع الرستمي ، وقد كانت تاهرت مشتهرة بذلك أيما اشتها ، فلا غرو في ذلك ، فأمرأؤها أنفسهم من العلماء والأئمة بل كانوا من أشهر علماء عصرهم ، وهو ما سمح للبكري أن يذكر بعض علمائها ، أمثال بكر بن حماد التاهرتي ، الذي قال بشأنه : «... وكان ثقة مأمونا ، حافظاً للحديث سمع بالمشرق من ابن مشدد وعرو بن مرزوق وبشر بن حجر ، وبافريقية (تونس) ابن سحنون وغيرهم ...»⁽²¹⁾ .

ومن هذه الجملة ندرك عدة أمور . وخاصة منها الترحال الى بلاد المشرق للاستزادة من العلم والارتواء من أفواه العلماء الكبار . وان حركة التنقل كانت كثيرة الى أبعد حد ، فهذا بكر السابق الذكر قد اتصل بأمرأء الدولة العباسية فمدحهم ، فكان شعره لا يقل أهمية وجودة عن

فطاحل شعراء الشرق في تلك الفترة ، فقد أورد ابن عذارى بعض أبيات بكر وهو يمدح الخليفة المعتصم العباسي :

أهجو أمير المؤمنين ورهطه ويمشي على الأرض العريضة دعبل
أما والذي أرسى ثبيراً مكانه ! لقد كادت الدنيا لذلك تزلزل⁽²²⁾
وكان المسجد في أول عهد الدولة الرستمية هو المؤسسة الكبرى الشاملة لأموار التعليم لذا جاء
تصميمه كبيراً الى حد ما ، حسبما أكدده البكري . والسبب في ذلك عدم وجود سعة من الوقت
لإنشاء المرافق التعليمية وغيرها مما يتصل بالنواحي الثقافية الأخرى ، الا بعد مرور فترة من
الوقت لترتيب المجتمع بأكمله ، فكان بعد مضي من الوقت أن بنيت المكتبة الكبرى والمعروفة
بالمعصومة ، والتي يبدو أنها حاوية لمختلف علوم العصر في ذلك الوقت ، ناهيك عن توفر آلاف
النسخ من الكتب المقدرة في كل المصادر التاريخية .

هذه لمحات عن مورفولوجية مدينة تاهرت (تيهت) من جميع الجوانب ، على أن نحاول في
المستقبل الإلمام بكل تفاصيلها ، مع ذكر أهم الآثار المتبقية منها .

هوامش

- (1) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير - العهد الإسلامي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981 ، ص 533 .
وكان أبو الشعثاء قد نفى الى عمان ، وعاد الى البصرة لاستكمال رسالته الدعوية وبها توفي سنة 93هـ ، خلفه أبو عبيدة
مسلم . سجنه الحجاج وأتباعه . أطلق سراحه سليمان بن عبد الملك . أرسل أبو عبيدة مسلمة بن سعد الى المغرب لبيت دعوة
الإباضية في أول القرن الثاني الهجري . أنظر الباروني ، مختصر تاريخ الإباضية .
- (2) سليمان الباروني ، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية (د . ت) ، ص 5 .
- (3) سالم ، المرجع السابق ، ص 541 .
- (4) البكري ، معجم ما استعجم ، مادة تاهرت ، ص 67 .
- (5) المقدوسي ، أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم ، ليدن ، 1907 ، ص 228 .
- (6) البكري ، معجم ما استعجم ، ص 66 .
- (7) الادريسي ، بواسطة اسماعيل العربي ، المدن المغربية ، ص 146 .
- (8) الشعراء الأئمة .
- (9) البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر ، 1911 ، ص 43 .
- (10) بواسطة العربي ، المرجع السابق ، ص 136 .
- (11) بواسطة اسماعيل العربي ، المرجع السابق ، ص 146 .
- (12) المقدوسي ، المصدر السابق ، ص 228 .
- (13) نفسه .
- (14) البكري ، المغرب ... ، ص 43 .
- (15) عن العربي ، المرجع السابق ، ص 148 .
- (16) الباروني ، الأزهار ... ، ص 137 ، ومختصر تاريخ الإباضية ، ص 43 .
- (17) ابن القوطية القرطبي ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق دون خليان ريبيرا ، مدريد ، 1926 ، ص 91 - 92 .
- (18) الباروني ، الأزهار ، ص 185 .

- (19) دبوز ، محمد علي ، تاريخ المغرب الكبير ، ج 3 ، ص 571 .
 (20) ابن الصغير ، أخبار الائمة الرستين ، تحقيق وتعليق محمد ناصر وابراهيم مجاز ، ص 32 .
 (21) عن العربي ، المرجع السابق ، ص 144 .
 (22) ابن عذارى ، البيان ... ج 1 ، ص 154 .